الموهبة الشعرية والموروث الثقافي في الشعر الجزائري

د.أحمد بزيو
جامعة باتنة1

الملخص:
تسعى هذه المقالة إلى الحديث عن شاعر الثورة الجزائرية، الثورة التي فجرت شاعريته الفذة، وجعلت منه مدرسة إبداعية في شمال إفريقيا بلا منازع، مركزين في ذلك على موهبته الشعرية في التعامل مع الموروث الثقافي الذي استمد منه فكره الشعري.
كلمات مفتاحية: شاعر الثورة، الموهبة الشعرية، الموروث الثقافي.

Abstract:
This article seeks to talk about the poet of the Algerian revolution, the revolution that blew up his inimitable poetics, and made him an undisputed creative school in North Africa, focusing on his poetic talent in dealing with the cultural heritage from which he derived his poetic thought
Keywords: poet of the revolution, poetic talent, cultural heritage.

الجزائر وما أدراك ما هي؟ إنّها البلاد التي أنجبت مغاوير أشداء، يشهد لهم بذلك القاصي قبل الداني، وشعراء فطالحة، ملكوا الألباب، واستولوا على شغاف الأفئدة، بما أوتوا من فصاحة وبيان.

لا يتجلى النص الشعري ولا يمكن تقييمه إلا بالعناصر الخاصة به من شكل ومضمون، تتصدرها ظاهرة الإبداع المرتبطة كل الارتباط بالإيقاعين الموسيقيين: الخارجي والداخلي ومن هنا يحتوي هذا الفصل على تعريف الإبداع لغة واصطلاحا، ومنه إلى العلاقة بين الإيقاع الموسيقي الخارجي والإبداع بدءا من عناصر العملية الإبداعية والمرور بالإحصاء والتطرق إلى الكم والكيف، وإلى ذكر البحور الشعرية الأكثر استعمالا من متقارب وخفيف ورمل وكامل وطويل بعد إشارة موجزة إلى إبداعه.

كما يجب التكلم على دعيمة الإبداع الأساسية المتمثلة في الموروث الثقافي حيث يضم الموروث الديني الذي تزخر به نصوص الشاعر مفدي زكريا من حديث شريف ورموز دينية من أنبياء عليهم السلام وأقوام، إضافة إلى ذكر بعض الشخصيات.

الموروث الثقافي

نظرًا للاستشهادات المقدمة في فصل الإيقاع الموسيقي الداخلي والتي ركزت فيها عن القرآن الكريم ارتأيت أن يكون الموروث الديني في هذا لإبراز العلاقة بين الإيقاع والإبداع يتعلق بالحديث النبوي الشريف، وكما عرفنا فإن الشّاعر مفدي زكريا ابن منطقة محافظة تقليدية في تدريسها وتعلم أبنائها في الكتاتيب، وما استثمره شاعر الثورة في إبداعه من معجم الحديث النبوي وما تضمنته نصوصه الشعرية في استحضار الموروث الديني إلا دليل ثابت على اختزانه وادخاره لهذه الثقافة الدينية الأصيلة،" فكلّ نصّ ليس إلاّ نسيجًا جديدًا من استشهادات سابقة وتعرض موزعة في النص على شكل: قطع – مدوّنات – نماذج إيقاعيّة، ونبذ من الكلام الجماعي...لأنّ الكلامَ موجودٌ قبلَ النصّ وحوله"[1].

1. الحديث النبوي الشّريف:

"ومـا تفيـدُ المعـاني وهـي مجدبـة لـو صـاغ ألفاظهـا داوود ألحانـا؟[2]

إنّ البيت من قصيدة عنوانها"رسالة الشّعر في الدّنيا المقدّسة" ألقاها مفدي زكريا باسم الجزائر في مهرجان الشّعر بدمشق يوم23 سبتمبر (أيلول)1961.[3] في هذه القصيدة التي تحتوي على خمسة وثمانين بيتًا شعريًّا من بحر البسيط(85بيتًا) مقسمة إلى ثماني وحدات غرضها الافتخار برسالة الشّعر:

رسـالة الشّـعر، فـي الـدّنيا مقدّسـةٌ لو لا النّبوءة..كانَ الشّعرُ قرآنَا [4]

وبعد ذلك تكلّم عن العابثين والمتنكرين للشّعر العمودي والدّاعين إلى التّجديد(الشّعر الحرّ) الذي يتضح في قوله:

قـالوا:جمودٌ علـى الأوضـاعِ، وزنكـم فشـعْرنا الحـرّ، لا يحتـاجُ أوزانَـا [5]

وأضيف بيتًا يخدم بحثنا هذا بتوظيف الشّاعر لكلمة الإيقاع بنوعيه موضحًا للنّاكرين:

فـأين مـن جـرس الإيقـاع، خلطكـم مـا الشّـعر؟ إن لـم يكـن دوحًـا [illegible][6]

إلى أن وصل إلى البيت الذي اخترناه ليوضح أن شعر المجددين يفتقر إلى الغنائية لأنّ معانيه جامدة حتى ولو كان إلقاء صاحبه لألفاظها شبيهًا بألحان داود عليه السلام، وهنا نستنتج استثمار الشّاعر لموروثه الثقافي الدّيني المأخوذ من الحديث الشّريف: وكان أبو موسى رضي الله عنه إذا قرأ القرآن بصوته تشعر وكأنّ الدّنيا كلّها تتمايل طربًا بصوته العذب الرّخيم؛ حتى إنّ النبي ﷺ قال له ذات مرة:"يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود"[7]وورد الحديث بصيغة أخرى"يا أبا موسى لقد أعطيت مزمارًا من مزامير آل داود"، وهذا باب التّضمين الذي يمثل علاقة بين الإيقاع

والإبداع:"ويطلق التضمين أيضا على إدراج كلام الغير في أثناء الكلام لتأكيد المعنى، أو لترتيب النّظم؛ ويسمّى الإبداع كإبداع الله تعالىﷻ في حكايات أقوال المخلوقين، كقوله تعالى حكاية عن قول الملائكة﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾ [الآية30-البقرة]

والنّـاسُ فـي الحـقّ إخـوان سواسـيّة فــلا قياصــرة فيــه ولا خــدمُ"[8]

في قصيدة ألقاها الشاعر في بيروت يخاطب فيها الرئيس جمال عبد الناصر مادحا، مطلعها:

قـلْ يـا جمـالُ يـردّد قولـك الهـرمُ [9]

تتعلق بقناة السويس حيث يرى المجتمع المصري متساويا في الحقوق والواجبات، لا فرق بين سيد ومسود، فمبدأ المساواة قررته الشريعة المساوية من القرآني إلى الحديث النبوي الشريف،"فالقرآن يقرر المساواة ويفرضها على الناس جميعًا، في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13] والرسول ﷺ يكرر هذا المعنى في قوله: النّاس سواسيّة كأسنان المشط الواحد لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتّقوى"[10] حيث نلمس نص الحديث الشريف في الشطر الأول من البيت الشعري. "والناس في الحق إخوان سواسيه" من باب توظيف ما اكتسبه من تراث ثقافي ديني لتدعيم رأيه برأي لا نقاش فيه.

"رمــــاك الزّمــــانُ، بكــــلّ لئــــيمٍ زنــــيمٍ، مــــنَ الفئــــة الباغيــــهْ"[11]

ينتمي هذا البيت الشعري لقصيدة" فلسطين على الصليب" عدد أبياتها تسعون بيتًا نظّمها الشاعر على شكل حوار بينه وبين فلسطين والعرب، يخاطب الشاعر في هذا البيت فلسطين التي رميت بين بعض أيادي اللؤماء من العرب التي شبهها بالفئة الباغية المذكورة في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: أبشر عمار تقتلك الفئة الباغية"[12] رواه الترمذي ومسلم. والدليل على هذا التوضيح ما ورد في البيت الذي قبله:

فلســـطين...والعرب فـــي ســـكرة قـــد انحـــدروا بـــك للهاويـــه!!

كما وردت(الفئة الباغية) مرة أخرى في ديوان(أمجادنا تتكلم):

ونحـــــنُ قـــــومٌ عهـــــدنا ذمّـــــة مـــا لـــم تخنـــا الفئـــة الباغيـــه [13]

"(محمّـــدٌ) أبْقـــى لنـــا عبْـــرةً منَ(الـــذّنْبِ والغَـــنمِ القاصـــيه) [14]

ومن نفس القصيدة السابقة ورد هذا البيت الشعري الذي يفسره سابقه:

"عقيـــدتنا فـــي الورى(وحـــدةٌ) - وأســمى العقائــد- وحدانيــه"

نجد تضمين الحديث الشريف..وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:"سمعت رسول الله ﷺ يقول:" ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان. فعليكم بالجماعة؛ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية" [15] رواه أبو داود بإسناد حسن..فلا بدّ من الوحدة لا للإنفراد والتفرقة فالذئب لا يأكل من الغنم إلا المنفردة.

"يشــكر الله كــلّ مــن يشــكر النّــا سِ ومـن يكـتم الشّـهادةَ كـافر" [16]

ورد ترتيب هذا البيت السابع والثلاثين(37) في قصيدة من مائة وأربعة وثلاثين بيتا(134) عنوانها" ملحمة بنت العشرين: صدق الوعد"[17] بمناسبة الذكرى العشرينية لاندلاع ثورة التّحرير اقتبس الشاعر من الحديث الشريف الشطر الأول، وكعادته في اقتباسه لتوضيح المضمون وظف التضاد للشرح، حيث يتجلى ذلك في البيت السابق:

"إنّ منْ يجحدُ البطولات نذلٌ والذي يغمط الرّجالَ مكابر" [18]

نجد عبارة(يجحد البطولات..) تقابل(يغمط الرجال..) و(يشكر الناس) تقابل(يكتم الشهادة..) فهذا التوظيف الدال على المقارنة يبين مراتب وقيم الرجال فاستدعى الأمر تقوية المعنى بما اكتسبه الشاعر من موروثه الديني:"عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[19]

2. الرّموز الدّينية:

إن الشاعر مفدي زكريا حاضر في دواوينه بثقافته الدينية، فهو متشبع ببعده الديني الموروث منذ نشأته، وظاهرة الإبداع ترتبط بما لديه من خبرات وتجارب نمت معه، والمتتبع لآثاره يجدها تزخر بهذا التوظيف الذي يعتبر جزءًا منه، أصيلاً بداخله، ولذا يستوجب جمع هذا الاستلهام وذكره لتثبيت مظاهر الإبداع.

أ- الأنبياء:

- **آدم(عليه السّلام)**

"وتفّاحـــــةٍ أخْرجـــتْ **آدمَـــــا** *** مـــنَ الخُلْـــدِ مـــذْ لعنتـــه السّـــما

ولكـــــنّ حوّاءنـــــا بلعتهـــــا *** وبـــــالعلّج أبـــدلتِ المُسْـــلِمَا"[20]

في هذين البيتين من المقطوعة نجد بعض المظاهر التي تفشت في المجتمع كموت الضمير واستبدال الجزائري بغيره؛ فحواء زماننا اختارت غير المسلم(العلج) زوجًا لها، وهذا دليل تمرد وعصيان، وحين نتأمل توظيف الشاعر لآدم عليه السلام حسب المناسبة، فإنّنا نجد أيضا هذا البيت الشعري مثلا:

"وحـــــذّر آدم ظلـــــم أخيـــــه وسوى الخطوط وأعلى الرّؤوسَا"[21]

من قطعة تضمنت الإخاء في الإنسانية تكلم فيها عن آدم عليه السلام وحواء، إضافة إلى عيسى عليه السلام، ومحمد ﷺ وتكلم فيها عن النصارى والمجوس والبربر وختمها ببيت قبل اللازمة:

إذا عـــــرب الـــــدّين أصـــــلابنا فمـــــا زال صـــــهرًا لعيســـــى! [22]

ليتضح الإخاء بأنواعه في المجتمع، ونبذ العنف والظلم والاستعمار، ولذا حذر آدم عليه السلام من الظلم، لأنّه أحسّ بالحزن حينما قتل قابيل هابيل.

"وآدم بالتفّـــــاح ضـــــيّع خلـــــده و(ماريـان) بالتفّـاح نلقـي بـه البحـرا

"تفّاحـــــة ينبيـــــك عـــــن(آدم) "[23] يطـــــرد مـــــن جنّاتـــــه العاليـــــه

يجـــــري على(حـــــوّا) ولا يـــــأتلي تـــــدفعنا حـــــوّا إلـــــى الهاويـــــه" [24]

حيث نجد المضمون مقتبسًا من النص القرآني: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿35﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿36﴾﴾[البقرة:35-36]

- **نوح(عليه السّلام)**

"عـن قصّـة المجـد مـن عهـد **نـوح** وهـــلْ إرم...هـــي ذات العمـــاد؟"

"ذكـــر الشّـــعبُ فيـــكَ قصّـــةَ نـــوحٍ يـوم لاقـى مـلء السّفينة(ناصـر)" [25]

في قصيدة" هذه يا جمال أزكى تحيّاتي" حيث نظمها بمناسبة زيارة الرئيس المصري جمال عبد الناصر للجزائر سنة1963، ومن خلال البيت الثاني وعجزه خصوصًا "يوم لاقى ملء السفينة (ناصر)" ندرك أنّ الرحلة كانت على متن السفينة فاستدعت الرحلة الموروث الثقافي الديني ليربطه بينه وبين ركوب نوح عليه السلام في السفينة لتكون رحلة عزّ ومجد.

- **إبراهيم(عليه السّلام)**

"وكانـــتْ لإبـــراهيم بـــردًا جهـــنّم فعلمنا-في الحرب-أن نمضغَ الجمرا" [26]

ضمت القصيدة"فلا عزّ ...حتى تستقل الجزائر!" نظمها الشاعر أثناء زيارته لبنان شهر نوفمبر سنة1961م، وأذيعت في جميع العواصم العربية**، وضمت رموزًا دينية متعدّدة، ونظرًا لترتيب الأنبياء والرسل عليهم السلام حسب زمن نبوتهم، فمن آدم إلى نوح فإبراهيم عليهم السلام، ومن يأتي بعدهم، ورد البيت المختار بشاهده الديني المتعلق بإبراهيم عليه السلام بعد سنين من اندلاع الثورة التحريرية المباركة، فسنوات الحرب بل الثورة كانت حمراء تعلم فيها الجزائريون الصمود والصّبر. كما نلمس التنبؤ في الشطر الأول المستوحى من النص القرآني حيث كانت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم عليه السلام بإذن ربها، فكذا الاستقلال حلّ بربوع الجزائر بعد عام من إذاعة القصيدة.

- **إسماعيل(عليه السّلام)**

"وسمعت عن كبش الفداء حكاية فسبقت فيه أباك(إسماعيلا)" [27]

نرى في هذا البيت نغمة غنائية وجدانية من بحر الكامل في قصيدة محتواة على اثنين وسبعين بيتًا، حيث تضمن قضية الذّبيح إسماعيل عليه السلام الذي شابهه الملك المغربي الحسن الذي يتكلم عنه ذاكرًا عددًا من صفاته ومواقفه.

- **يوسف(عليه السّلام)**

"إلام؟ وقد أودى بها وأمضها سنون بلاء من سنون يوسف [28]

وهنا تضمين للسبع الشداد التي ورد في القصص القرآني المرتبطة بيوسف عليه السلام التي تشبه سنوات الثورة الجزائرية.

- **سليمان(عليه السّلام)**

"وما دلّنا عن موت من ظنّ أنّه سليمان-منساة- على وهمها خرّا"[29]

وهذا بيت احتوى على أسلوب التهكم والسخرية بـ"ديغول" كما يرى الشاعر أنّه متكئ إلا على عظمة زائفة. فهيهات بين عصا سليمان الحكيم عليه السلام وما يظنّه هذا المسؤول الفرنسي!

- **موسى(عليه السّلام)**

"ألقى عصاه بها(موسى)مروعة راحت لما بثّ(إسماعيل)تلتقم"[30]

إن القارئ يعرف في صدر البيت أن المقصود هو موسى عليه السلام وإن لم يتأمل جيدا ما ورد في العجز يظن المقصود هو نبي الله إسماعيل عليه السلام، وحين التركيز ندرك أن المقصود هو الخديوي إسماعيل الذي وزع أسهم استغلال القنال على الأجانب بسخاء، ولذا نجد المشاكلة بين(موسى وإسماعيل)، وهي إعادة اللفظ بعينه ليس من التكرار في شيء إذا كان المعنى مختلفا وإلا لما سمي مشاكلة، ولذا تسمى المشاكلة بالمقاربة(التقريب)، كما سميت" المشاكلة: الموافقة وفيه أشكلة من أبيه أي شبه، وفي المصطلح البلاغي المراد ههنا أن المتكلم إذا أراد أن يذكر كلمة عدل عنها إلى لفظ يشاكلها أي يشبهها ويوافقها فيكون ذلك أبلغ في نفس السامع"[31]

"وموسى كان يأمرُ بالتّآخي وحذّرَ قومَه مكْرًا وعابَا"[32]

ومن صفات ومهام الأنبياء أنهم مبشرون في دعواتهم إلى المحبة والإخاء ومنذرون ومحذرون أقوامهم من اتباع الغيّ ومن مكر العصاة. كما وظف الشاعر في قصائده نبي الله موسى عليه السلام عدة مرات خدمة لإبداعه:

"ورثنا عصا موسى،فجدّد صنعها حجانا فراحت تلقف النّار،لا السّحْرا

وكلّمَ موسى الله في(الطّور) خفيّة وفي (الأطلس الجبّار)كلّمنا جهرا"[33]

ونجد أيضًا:

"عصى موسى، فسلْ فرعو ن عنها والأفاعيا"[34]

"وجاء(الجزائر)فتيةَ صدقٍ كما جاء(موسى) على قدر"[35]

"إذا جاء موسى وألقى العصا فقد بطل السّحْر والسّاحر"[36]

- **عيسى(عليه السّلام)**

"وأنطقَ عيسى الإنْسَ بعدَ وفاتهم فألهمنا-في الحرب-أن ننطقَ

ومن نفس القصيدة السابقة"فلا عزّ حتى تستقل الجزائر" التي تزخر بأسماء الأنبياء عليهم السلام، وكما ورد في فصل الإيقاع الموسيقي الداخلي الذي احتوى على جداول تتعلق بإحصاء التوظيف القرآني؛ فإنّ هذا البيت تتمة لتوضيح عملية الإبداع المتمثل في الثقافة الدينية لدى الشاعر، وتكفي العودة إلى الآية الكريمة(47) من سورة آل عمران، وكذا الآية الكريمة(112) من سورة المائدة اللتين تحتويان على معجزة نبي الله عيسى عليه السلام ليثبت الشاعر بجدارة في إبداعه كيف يستخلص المؤمن العبر ممّا ورد في القرآن الكريم الذي يعتبر مصدر إلهام له ليبين هذا الإبداع الذي يشع قوة واتحادًا وإيمانًا؛ فإذا كان نبي الله يحيي الموتى ويكلمهم بإذنه تعالى، فبفضله تعلم الجزائريون كيف ينطقون الحجر الجامد ليقف مساعدًا ومعترفًا ببسالة الجزائريين، ولم يتوقف إبداع الشاعر عند ما ورد بل عند التفحص نجد:

"وصبّ النّفايات في أرضنا وخانَ المسيح وأرضى السّوامَا"[38]

وهنا يشير الشّاعر إلى شارل العاشر ملك فرنسا حيث ذكر قبل هذا البيت الشعري:

"وأوحى له قمحنا غزونا فأطلقَ هذي القموح سهامَا"

إلى أن وظف كلمة"المسيح" في عجز البيت المذكور بحجة أن ملك فرنسا يرى في صبّ النفايات على أرضنا إرضاء للمسيح وشرفًا لوطنه، وهذا ما ذكره في خطاب العرش يوم 2 مارس 1980م:"إنّ العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا سيكون بإعانة الله القدير لفائدة المسيحية جمعاء"[39] وشاعر الثورة يرى في هذا خيانة للمسيح لأن عمله هذا يتنافى مع الشرائع السماوية وإساءة لها لما يحتويه من ذلّ وهوان للآخرين.

"وأغضب عيسى وراع الصّليـ ـبَ فأنشدنا أن نردَّ المثيلا"[40]

وفي المقطوعة التي تحتوي على هذا البيت من الإلياذة التي يذكر فيها مساوئ الفرنسيين، من جحود وإلحاق الضرر بالمهاجرين وقذف الضحايا في نهر السين،وقتل عمال المناجم والزّجّ بالكثير في الجون، كانت أسبابًا لغضب عيسى عليه السلام المعروف بالسلام، فكان الردّ بالمثل من ثوّار الجزائر الذي يوضحه هذا الدليل الديني المتمثل في القصاص وإعادة الحقوق المسلوبة، فكان الغضب بعد الحقد الذي نفذ فيه صبر الرصاص.

أما في هذا البيت:

"وتغضب عيسى المسيح وتبكي على جذع نخلتها مريمَا"(41)

أضاف فيه والدته مريم عليها السلام المستنبطة من سورة مريم، قال الله تعالى: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم- 25] لكنها بصورة دالة على الحزن والبكاء، وتكفي الإشارة هنا أيضا لتجنب التكرار حيث يبدي الشاعر تفشي ظاهرة زواج المسلمات بغير المسلمين.

وربط الشاعر عيسى عليه السلام برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم في عدد من الأبيات الشعرية، وند هذا في دواوينه الثلاثة، وبما أن الجزائر المسلمة وفرنسا المسيحية كان هذا الرابط عنده متماسكا قويا لإيضاح التماسك الديني بين كل الأديان السماوية الداعية إلى الإيمان الكامل والتوحيد والمنهج القويم، فالرسالة السماوية واحدة وهدفها واحد.

- **عيسى ومحمد عليهما السّلام:**

حين نتأمل هذه الأبيات نشعر بصلابة الدين ومتانته، فنبيا الله ينتسبان لحق واحد..وإذا كان بعض الجزائريين متزوجين بمسيحيات(أهل الكتاب) فلا ضير في ذلك؛ فتضمين المصاهرة بين الشعبين الجزائري والفرنسي كما ورد في هذه الأبيات لا يتنافى مع الدين الإسلامي:

"وكان محمّد نسبًا لعيسى وكان الحقّ بينهما انتسابَا"(42)

"أولئك آباؤنا منذ عيسى وكان محمّد صهْرًا لعيسى"(43)

"إذا عرّب الدّين أصلابنا فما زال أحمد صهْرًا لعيسى"(44)

"وما كان عيسى ظلومًا جهولاً وكان محمّد يرعى النّصارى"(45)

وحين نتأمل هذه الأبيات التي تتضمنها قصيدة" آمنت بالشعب فردًا لا شريك له" والتي ألقاها الشاعر في مهرجانات عيد النصر في الفاتح من شهر نوفمبر1962م وفي لقاءات شعرية أخرى حيث تتجلى المواقف والبشائر ويهتز طربًا لهذا النصر وينزه نبي الله عيسى عليه السلام من الافتراءات، وذكر بشارته ومعجزته، كما نزه كل النبيين وبين العلاقة بين النبيين: عيسى ومحمد عليهما السلام:

"حاشاك حاشاك يا(عيسى)هم كذبوا ما في النّبيين نصّابٌ وخوّانُ

لأنْـتَ صـهر رسـول الله مـن قـدم كم كنتَ بشرت من عقّوا ومن خانوا
أحييتَ موتاك أحي اليوم لي أملاً في عيد شعْبٍ لهُ بالرّسل إيمانُ"(46)

- **محمد صلى الله عليه وسلم**

"وحـدّثنا عـن يـوم بـدرٍ محمّـدٌ فقمْنا نضاهي في جزائرنا بدْرَا"(47)

وكان ختام هذا العنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم ترتيبًا لكونه خاتم النبيين عليهم السلام فكان صلى الله عليه وسلم قائد غزوة بدر الكبرى فشبه الشاعر ثورة الجزائر بها لأنها أولى الغزوات، وكان هناك تقاطع بل تناص داخلي من ناحية الغزوة المباركة بين ما ذكره في الإلياذة والبيت السابق:

"وذكرتنـا-فـي الجزائـر-بـدرًا فقمنـا نضـاهي صـحابة بـدر"(48)

والملاحظ أن الشارع لم يتكلم عن محمد صلى الله عليه وسلم كباقي النبيين عليهم السلام إلا أن دواوينه الثلاثة تزخر بالاستشهادات من النص القرآني دون غيره من الكتب السماوية الأخرى.

ب- الأقوام:

- **ثمود وعاد:**

"وأوقفـت ركـب الزّمـان طـويلا أسـائله: عـن ثمود..وعـاد.." (49)

بيت من الشعر وظفه الشاعر ليدل على قدم وأصالة الجزائر، وهما قبيلتان بائدتان ذكرتا في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية (5) وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية(6) ﴾[الحاقة:5-6]

فلم يصلنا من أخبارهما إلا ما ورد في النص القرآني.

"هكـذا الشّـرّ والصّـلاح سـجال بين أهل الوجود من عهد عاد"(50)

نعم إن الثنائية في الحياة موجودة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ فالشّرّ والصّلاح سجال ثابت منذ القديم، لذا استشهد الشّاعر بقوم عاد، ومن المؤكد أنّه لا يخفى عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.[هود-58]

- **أصحاب الرّقيم:**

"إنّنـا اليـوم كأصـحابِ الـرّقيم وهـوى(ميزاب)في القلـب يهـيمُ"(51)

في قصيدة من بحر الرمل(مدح وفخر) من قصائده الأولى، ومن الأرجح أنّه نظّمها في العشرينيات أثناء دراسته في تونس وهي من قصائده الأولى، اشتدّ شوقه إلى

بلدته فمدح وافتخر إلى أن قال هذا البيت الذي احتوى على أصحاب الرّقيم، قال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا** ﴾ [الكهف- 09]

على ما يبدو نشعر بشيء من التهميش أو الضيق في مضمون البيت؛ فأهل ميزاب كأصحاب الرقيم الذين هربوا وقطنوا عهدا طويلا خوفا على أنفسهم وحفاظا على ديانتهم، وسبب ذكر هذا المعنى يوضحه البيت الذي قبله:

"نحن مثل الليث من بعد الصّموت هل تراه قد بدا مبتسما؟ (52)

وفي هذا تضمين لما ورد في بيت المتنبي:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم

- **إرمَ ذات العماد:**

"عن قصّة المجد من عهد نوح وهـــل ارم..هـــي ذات العمـــاد؟(53)

إنّ المتتبع لعجز البيت الشعري يجده مقتبسًا من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فعل ربّك بعاد ﴾ [الفجر: 7]

وللتأكّد بأنّها من القبائل ورد في حاشية الصاوي على تفسير الجلاليين: "إرم: هو في الأصل اسم جدّ عاد، وهو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السّلام، سميت القبيلة باسم جدّهم عاد" (54)

إنّ الشاعر في هذا البيت يتكلم عن مجد الجزائر، فهي معبد حبّه، وحلم فؤاده، وإيمان قلبه، فهو يرى أصالتها وقدمها الضّاربة جذوره في الأعماق فيربطه بعهد نوح عليه السلام، وحين سأل الشاعر بهل كأسلوب إنشائي يقابله الأسلوب الخبري الذي تكون إجابته بالإثبات: نعم إرم...هي ذات العماد؟

ت- الشّخصيات:

اعتمد الشاعر أيضا في تدعيم إبداعه على ما ورثه من مخزونه التاريخي العربي وغيره، وحسب التّصفّح الإحصائي فإنّ "إلياذة الجزائر" تزخر بهذا التّوظيف ويعود السّبب إلى نظمها بعد الثّورة – كما ذكرت - فاعتمد فيها على ما طالعه في الكتب التاريخية وما استند عليه من موروثه الثقافي وغيره، إضافة إلى ذاكرته وأيّامه التي عاشها كثائر مناضل بقلمه خارج السّجون وداخلها بل داخل زنزاناتها، وامتيازه بجرأة خاصة لا نظير لها،...فكانت في الإلياذة مسحة تاريخية، وحين عاوده الحنين إلى نظمها تجلّى فيها الصّدق العاطفي الفنّي، ومع ذلك نجد في ديوانه" أمجادنا تتكلم" الذي طبع بعد وفاته يأتي في المرتبة الثّانية لهذا التوظيف، وأقلّها" اللهب المقدّس". وأشير إلى بعض ما ورد كاستشهادات بإيجاز تجنّبًا للتّكرار.

- شخصيات في "**اللهب المقدس**"

لله درّ أبـــــــي ذرّ!! وثورتـــــــه فما (لماركس) عنه اليوم ألهنا؟![55]

استدعى الشاعر في قصيدته الطويلة(رسالة الشعر في الدنيا مقدسة) التي تحتوي على هذا البيت مفتخرًا ومعتزًّا فيها بالشّعر وضمنها وجهة نظره التي بيّنَ فيها المذهب الاشتراكي الذي اختارته الجزائر أمام المستمتعين بإلقائه للقصيدة في مهرجان الشّعر بدمشق يوم 23 سبتمبر1961م، منها:

(الاشـــتراكية البيضـــاء) مـــذهبها والشّعب في فلكها، ما انفكّ ربّانا[56]

وإن كان كارل ماركس هو من ينسب إليه هذا المذهب في زماننا، فالشاعر مفدي يرى أن الصّحابي الجليل أبا ذرّ الغفاري رضي الله عنه هو أوّل من دعا لتطبيق الاشتراكية زمن خلافة الفاروق رضي الله عنه حيث تتضح المشاكلة المعنوية بين كل من أبي ذرّ وماركس.

- شخصيات في **"إلياذة الجزائر"**

تزخر الإلياذة بالكثير من أسماء الشّخصيات، فمن موسى وزيّان وابن خميس وابن خلدون التي ذكرت أسماؤهم فيما يلي:

وفي مشور المجد أذن موسى وخلّد زيّان مجد العربْ

ونافخ فردوسك ابن خميس ويحيى ابن خلدون فيك التهبْ[57]

فمزج بين اسمي السيدين: أبو حمو موسى الثاني ومؤسس دولة بني زيّان والشّاعر ابن خميس والمؤرخ ابن خلدون في هذه المقطوعة من الإلياذة. وسأقدّم ما احتوته من بعض الأبيات لتبيان عنصر الإبداع:

دماء ابن رستم ملء الحنايا صـــوارخ، يلهـــبن عـــزّة

وسـيبوس فـاض فتـاه دلالا يعـانق زيـري المليـك الهمـام

بولـــــوغين إن صـــــانها وحـــازت أكوســيوم أقصـــى

وهـــبّ الأمـــازيغ مـــن تصـــول، وتزجـــي الخمـــيس

فأبنـــاء مـــازيغ قـــادوا الفـــدا وخاضـــوا المعـــامع،يوم

دعوا ماسينيسا يردّد صدانا ذروه، يخلّد زكى دمانا

وخلّوا سفاكس يحكي لروما مدى الدّهر كيف كسبنا الرّهانا

فجاء يوغرطا على هديه بحكم الجماهير يفشي الأمانا!! (60)

سلوا طبرية يذكر تبيريـ ـوس تيكفاريناس يوالي
سلوا بربروس يجيبكم ـن من جرجرا كيف أجلى
وهذا أغوستنس بالاعترافا ت حيّر –عبر الزّمان-

وقلنا: كسيلة كان مصيبا وكاهنة الحيّ أعلم منّا
ومرحى لعقبة في أرضنا ينير الحجى ويشيع اليقينا(62)

كما أشير هنا فقط إلى الجمع بين شخصيتين وطنيتين: كسيلة والكاهنة والصحابي الفاتح عقبة بن نافع رضي الله عنه لم يكن من باب المشاكلة، وإنما من باب التعارض الإيجابي أو التّطابق، هذا من باب المفهوم العام، أما من باب التضمين"فهو الجمع بين ضدّين، كما قال تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ [التوبة:82] وكما قال عز وجل:﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر:14] وكما قال تعالى:﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف:18]"

وإنّ شاعر ثورتنا جمع بين هذه الشخصيات من فتح إسلامي وتصد له لم يشر بتاتا إلى الوقوف في وجه الفاتحين من باب الواجب أو الوطنية، ولم يذكر بل لم نشعر بذلك للباقته وسلكه الفني الحضاري الإبداعي النابع من المكانة في شتى مناحي الحياة والتجربة حيث توسّط هذين البيتين قوله:

فأهلا وسهلا بأبناء عمّ نزلتم بأرضنا فاتحينا(63)
وبويع شاعرها الهاشمي فكان بها القائد الملهما(64)
وجندت من خالد بن الوليد وسعد بن وقاص أبطاليه(65)
يصوغ ابن فكون فيها بوحي خميلاتها السندسيه
وتزهو قسنطينة بابنها محمد من شرف العربيه
وخلّد سرتا البجاوي الضّليع وواصل حمدان صنع البقيه
كأنّ الحطيئة عاش مدينا لعاشور في هجوه للبريه
وجاء ابن باديس يغزو ويعلي الرّؤوس، ويذكي الحميه(66)
هوميروس أرّخ..لم ينتقد وشهنامة الفردوس بالوصف (67)

جمع الشاعر الكثير من أسماء الشخصيات في الإلياذة من صحابة رضي الله عنهم وعلماء وشعراء وسادة وقادة من جزائريين وعرب وغيرهم، وكما ذكرت فإنني لم أذكرهم بالتفصيل ولا مهامهم تجنبا للتوسعة المملة، رغم وجود إشارات في هوامش صفحات البيات المذكورة.

- شخصيات في **"أمجادنا تتكلّم"**

كما أنني اكتفي بذكر أبيات تضمنت أسماء شخصيات من ديوان الشاعر:"أمجادنا تتكلم"

ألا نظـــرات إلـــى(ابن الوليـــد) وفـــــاتح ملـــــك(العزيز)(عمر)
وعقبـــــة فـــــاتح افريقيـــــا و(حســـان) مـــن بعـــده قـــد زأر
و(طـــارق) إذاك وابـــن نصـــير بأنـــدلس ســـعيهم مشـــتهر[68]

لـــــذ(بالثعالبي) فـــــي خلـــــده ينبئك عن بجاية الماجده
و(ابن سبعين) ومن جادلوا، فـــأفحموا بالحجـــة الرّاشـــده
و(ابن تومرت)، وإصراره فـــي ثـــورة جامحـــة صـــامده[69]

ويثبت الشاعر مرة أخرى وفي كل آثاره مقدرته الكبرى على التوظيف المعتمد على موروثه الثقافي المتنوع الذي ابتعدت فيه عن دور الشخصيات نظرا لوجود نبذات عنها في هامش الدواوين.

المراجع والإحالات:

(1)- رولان بارث، نظريّة النصّ، بحث مترجم ضمن كتاب آفاق تناصيّة: المفهوم والمنظور، ترجمة: محمد خير البقاعي، ص30.
(2)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص291.
(3)- ينظر: مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص287-298.
(4)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص290.
(5)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص291.
(6)- مفدي زكريا، اللهب المقدس ، ص291.
(7)- محمود المصري، أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مج2، 2008، ص159، نقلا عن الألباني في الجامع الصحيح،(7831).
(8)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص301.
(9)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص299.
(10)- عز الدين بليق، منهاج الصالحين،دار الفتح، بيروت، ط1، 1978، ص456.
(11)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص337.

(12)- منصور علي ناصف، التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، دار الفكر، بيروت، ص371.
(13)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم، ص234.
(14)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص349.
(15)- محي الدين أبو بكر النووي،ص369.
(16)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص246.
(17)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص244.
(18)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص246.
(19)- البخاري، الأدب المفرد، شركة القدس، القاهرة، ط1، 2007، ص52..
(20)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص103.
(21)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص40.
(22)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص40.
(23)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص306.
(24)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص265.
(25)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص177.
(26)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص176.
(27)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص158.
(28)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص83.
(29)- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص306.
(30)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص300.
(31)- صفي الدين الحلي، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، تحقيق: نسيب شناوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص181.
(32)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص39.
(33)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص306.
(34)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص102.
(35)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص105.
(36)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص279.
(37)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص306.
(38)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص51.
(39)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر،(الهامش)، ص51.
(40)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص77.
(41)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر،ص103.
(42)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص39.
(43)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص40.
(44)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص40.
(45)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص78.
(46)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص171.
(47)- مفدي زكريا، اللهب المقدّس، ص309.
(48)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص67.
(49)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص35.
(50)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم، ص96.
(51)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم ، ص28.
(52)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلّم ، ص27.
(53)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص35.
(54)- أحمد الصاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلاليين، تصحيح محمد عبد السّلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، مج4، 2009، ص366.،
(55)- مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص298.
(56)- مفدي زكريا، اللهب المقدس ، ص297.
(57)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص31.

(58)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص33.
(59)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص36.
(60)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص37.
(61)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص38.
(62)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص61.
(63)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص41.
(64)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص52.
(65)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص83.
(66)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص91.
(67)- مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، ص114.
(68)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم، ص32.
(69)- مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم، ص32.